رد الى ميشال هيدموس حول موضوع «الازدواجية في الانسان والعالم»

اخي في الانسانية،

تساءلت عن الازدواجية في الانسان، وعن كونها «تطال اعماق الوعي وصلب تكوين الانسان»، اذ هو يحوي «الروح والمادة، الوعي واللاوعي، الايجابيات والسلبيات، المحبة والكره، الهدوء والصخب، الحنان والقسوة، الصحة والمرض»، وعن الازدواجية في العالم اذ هو يحوي «النور والظلام، الولادة والموت، الانبثاق والاضمحلال، الحياة والعدم»...

وبتساؤلك هذا، اراك تبصر في الازدواجية جانباً مظلماً، مخيفاً، او لجّة عميقة تكاد تبتلع الانسانية والعالم... فهل الازدواجية هي على النحو الذي ذكرت؟

قد تكون الازدواجية في تصرفات الانسان وفي شخصيته هي المخيفة والمظلمة، نعم، فتراه تارة يحب واخرى يكره، طوراً يعطي وآخر يسرق، مرة يصدق واخرى يكذب... نعم هذه هي الازدواجية المخيفة، التي لا تنجم الا عن مستوى وعي متدنٍ. فلو كان الانسان واعياً حق الوعي، لما استطاع ان يكون مزدوج الطباع والتصرفات والافكار والمشاعر والمواقف. ولو كان الانسان واعيا حق الوعي، لما كانت حروب ونزاعات ومخاوف ومجاهل ومتاهات وتناقضات وامراض ومشاكل. لكن الانسان بعيد اشد البعد عن حقيقته الانسانية وعن ذاته الالهية. لهذا الامر تجده تائها في دوامة اللاوعي، بل تائها عن قيمته كانسان. فتراه يجنّد كل ما في وسعه في سبيل التطور التكنولوجي والكسب المادي والتوسع الانائي، مهملا المبادىء الانسانية وحق تطوير نفسه عليه. ولو ان الانسان التفت الى نفسه الباطنية واولاها الاهتمام اللازم بقدر اهتمامه باكتشاف القمر واختراع احدث الآلات الحربية المدمرة، لوفر على نفسه حروبا كثيرة وامراضا مزمنة لم يجد لها شفاء حتى الآن.

اما عن الازدواجية في العالم، فأرى فيها جانبا ايجابيا، بل بديهيا، وطبيعيا.

تخيل عالما ينعدم فيه الليل ويكون كله نهاراً، او ينعدم فيه الموت: فتتكاثر البشرية والمخلوقات حتى تزدحم الكرة الارضية بسكانها ولا يبقى عليها متسع لروح جديدة تود التجسد، او تنعدم فيه المادة، فيكون الانسان روحا فقط، وتكون الانسانية مجموعة ارواح هائمة على سطح اليابسة... ماذا عساه يكون عالم كهذا؟

ثم اليست الازدواجية سبباً لتطور الوعي الانساني؟ فمن المعروف علميا ان الانسان يتعلم ويتطور بواسطة المقارنة، مقارنة الابيض بالاسود، والخير بالشر، والايجابي بالسلبي. فكيف تريد لإنسانية ان تتطور وتكتسب حسن التمييز دون ازدواجية تقارن بين شطريها لتدرك معنى الوحدة وتطمح اليها؟

قرأت في احد الكتب: «مسار الوعي يمر بالازدواجية، فالانسان لا يستطيع ان يدرك ماهية النور ان لم يتعرف الى الظلمة... فالمقارنة تؤدي الى التمييز، فيفضل الانسان النور على الظلمة... آنذاك يكون قد اكتسب الحكمة، لأن الحكمة هي تطبيق الوعي».

فيا اخي، لا تنظر الى الحياة بعين واحدة، او الى جزء منها، لأن «من جزأ الحياة، اسرته الحياة في احد اجزائها».

قد يكون من الاجدى ان نتساءل:

كيف نستفيد من الازدواجية لنصل الى الوحدة؟

كيف نتوحد مع نفوسنا لنتوحد مع الآخرين؟

وكيف نتغلب على لاوعينا وضعفنا، وامراضنا، وحروبنا، وسلبياتنا، لنتوصل الى حالة السلام الدائم، مع نفوسنا ومع الآخرين؟

فحين نجد الاجابات الشافية على هذه التساؤلات، نكون قد قطعنا نصف المسافة نحو الحضارة الانسانية الحقة - حضارة الوعي، لا حضارة الحديد والمتنة التي نعيش فيها.

سوسن نقاش

هامش:

نشرت في جريدة الديار بتاريخ ٢٦ حزيران ٩٢ في الصفحة الثقافية.